مجلة جامعة الملك سعود، م ٧، العمارة والتخطيط، ص ص ٣-٢٦، الرياض (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)

١

الرأسمالية من حيث لا ندري

سمير عبدالقادر أكبر

محاضر بكلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك فيصل،

الدمام، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٤١٣/٤/٢٩هـ، وقُبل للنشر في ١٤١٥/٤/١٢هـ)

ملخص البحث. إن الحل المطروح لمشكلة عدم توافق البيئة العمرانية مع حاجات السكان الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية ينحصر دائمًا في اعتبار «عملية التصميم» هي الوسيلة لإيجاد أماكن أو فراغات تخدم هذه الحاجات، وكأن المشكلة هي أن البيئة المعاصرة قد صممت لاحتياجات المجتمع الغربي بدلاً من احتياجات مجتمعاتنا المسلمة، وأن الحل يمكن أن يتم بواسطة إعادة التصميم على حسب الحاجات الاجتماعية المحلية.

بينما في الواقع أن المشكلة تكمن في عملية التصميم نفسها التي تشكلت في المجتمع الرأسمالي حيث استُخدمت عملية التصميم كوسيلة لدفع عجلة الرأسمالية وذلك بواسطة تبني الوظيفية Functionalism كمبدأ في التصميم. كما أصبحت عملية التصميم مطية الرأسمالية وقيمها للانتشار خلال الشعوب. وبذلك تكون عملية التصميم في حد ذاتها الداء لا الدواء. وليست عملية التصميم هي الوحيدة التي تستخدمها الرأسمالية للانتشار، بل إن كثيرًا من المقومات الحضارية الغربية قد تغلغلت في مجتمعاتنا مما جعل كثيرًا من السكان يتقبلون البيئة الحضرية المعاصرة بالرغم من عدم تناسبها للاحتياجات المحلية.

سيناقش هذا البحث تأثير الرأسمالية على عملية التصميم، والأماكن التي أوجدتها عملية التصميم وتضادها مع القيم والعادات والتقاليد. كما سيناقش باختصار بعض الحلول في كيفية التخلص من طغيان الرأسمالية.

المقدمـــة

إن المجتمع الإسلامي كمجتمع مستورد للمنتجات والتخصصات وبعض النظم والقوانين من الغرب، يعاني من مشكلات لا حصر لها، تظهر منها آثار في مجالات الحياة المختلفة. وغالبًا ما تأخذ الدراسات هذه الآثار في الاعتبار والتحليل دون البحث عن أصولها، فنجد عبارة «آثار الغزو الفكري» هي النغمة ذات الطابع المميز.

ففي التخصصات التي تهتم بتصميم البيئة العمرانية، تناقش الدراسات ذات الميول الاجتماعية مشكلة فقدان الخصوصية في المناطق السكنية وضعف علاقات الجوار فيها مثلاً، فتحلل المباني والفراغات وتنتقد عدم وجود الأفنية الداخلية التي توفر الخصوصية للأسرة وأن هذه الأفنية قد استبدل بها أنماط غربية كالحدائق الأمامية والارتدادات بين البيوت والتي أضعفت بدورها علاقات الجوار، فتكون النتائج والتوصيات أنه ما على المتخصصين المسلمين إلا أن يقوموا بدراسة كيفية التوفيق بين الفراغات وسلوك المسلمين ثم تصميم البيئة المناسبة. وكذلك عندما تناقش الدراسات ذات الميول الفني المعماري قضية فقدان الهوية العمرانية في البيئة الحديثة مثلاً، فتدرس المباني القديمة من ناحية جمالية وتأخذ منها بعض الأفكار التصميمية وتلصقها في المباني المعاصرة كحل لقضية الهوية الضائعة. وتناقش دراسات الطقس وحرارة الجو الناتجة من سعة الشوارع مثلاً، وكيفية تلطيف الجو بالتشجير وتوجيه المباني في اتجاهات معينة للحصول على الظلال. فالغالب في هذه الدراسات أنها تناقش كيفية تبديل الأعراض بأعراض أخرى.

كما تركز هذه الدراسات على قضية الفارق القيمي والتقليدي والعاداتي وغير ذلك من مقومات اجتماعية حضارية بين المجتمع المسلم المستورد والمجتمع الغربي المصدر، وبالتالي فالاعتقاد السائد هو أنه من الممكن تصميم البيئة العمرانية المناسبة لمجتمعنا إذا أخذ المتخصصون في عين الاعتبار هذه الفروق الاجتماعية الحضارية.

ولكن هناك قضية مهمة يجب إثارتها في هذا المقام، هل البيئة العمرانية في الغرب مناسبة له أساسًا؟ إذا كنا سنسلك الطريق الغربي نفسه للوصول لغايتنا، فحري بنا أن نرى أين وصلوا. إن واقع المجتمع الغربي يدل على أن البيئة العمرانية الغربية لا تتناسب مع كثير من احتياجاته الاجتماعية، بل إن كثيرًا من مشكلاتهم الاجتماعية تعزى إلى سوء تصميم البيئة العمرانية. فكثير من الدراسات الحالية في علم البيئة والسلوك

Environment and behavior أو علم النفس البيئي Environmental psychology تؤكد عدم التوافق بين البيئة العمرانية واحتياجات السكان الاجتماعية والنفسية هناك، وكم كتب عن اضمحلال القيم، وضعف العلاقات في الحي الواحد، وقلة الأمان في المناطق السكنية [١-٤]. وماذا عن مشاريع الإسكان الضخمة والمكلفة التي هجرت أو دمرت مثل مشروع Pruitt-Igoe الذي دمر في عام ١٩٧٢م في مدينة سانت لويس الأمريكية؟ إذن فلابد من وقفة تفكر وتأمل، فالاستمرار على ما هو عليه الغرب ليس مغر على الإطلاق، فلا نكون كالمستجير في الرمضاء بالنار.

لذلك كان لابد من إلقاء نظرة على مصادر نشأة نظم تصميم البيئة العمرانية الغربية.

بداية الحضرية الغربية

في عام ١٨٩٩م كتب (آدنا وبر) Adna Weber كتابه «نمو المدن في القرن التاسع عشر» *The Growth of Cities in the Nineteenth Century* وأوضح أن الاكتشافات العلمية فيما قبل الثورة الصناعية أدت إلى تطور التقنية مما أدى إلى زيادة الإنتاج زيادة كبيرة ومن ثم زيادة الطلب على الموارد الطبيعية، وارتفع دخل الفرد ثم الاستهلاك. والتطلع إلى زيادة الإنتاج كان دافعاً إلى تحسين كيفية العمل وكفاءته وتطور أسس التنظيم الصناعي. وحدثت تغيرات أخرى في معدل حجم المؤسسات المنتجة، حيث كبرت المؤسسات الصغيرة وظهرت مؤسسات ضخمة، وللحاجة إلى الأيدي العاملة حدثت هجرة كبيرة من الريف والقرى إلى المدن. فازدحمت المدينة بشكل كبير وتعددت نوعيات العمال والتخصصات والأسواق، وكبر حجم المؤسسات مما زاد من التراكم المالي في المدينة فزادت بالتالي حدة النشاط الاقتصادي، أي أنه بتضخم الحركة الاقتصادية تغيرت تركيبة المجتمع التقليدية إلى الحضرية الجديدة [٥، ص٣].

وحتى بداية القرن التاسع عشر كان الاعتماد على عربات الحيوانات سواءً في نقل المنتجات من المصانع إلى الأسواق أو السكان إلى أعمالهم. ولعدم وجود وسائل المواصلات السريعة كانت المدينة لا تستطيع الانتشار بسبب الكثافة السكانية والتي تريد السكن قرب المصانع والمؤسسات لسرعة الوصول، وكذلك بسبب المنتجات التي يجب نقلها بسرعة إلى

الأسواق وخصوصًا التي تحتاج إلى تبريد. وفي هذه الفترة كانت المدينة تمر بمرحلة صعبة بسبب مشكلات التلوث واختلاط المصانع والمساكن والحظائر والمؤسسات بعضها ببعض. وكانت الحاجة الشديدة للانتشار أحد الأسباب الرئيسية لاختراع وسائل المواصلات السريعة. ومن عام ١٨٧٠ إلى ١٩٠٠م انتشرت في المدينة وسائل المواصلات السريعة، إذ تمكن بعدها موظفو المؤسسات وعمال المصانع من السكن بعيدًا عن الازدحام والتلوث، كما تمكنت المصانع من إيصال منتجاتها إلى أماكن بعيدة، أي أن المدينة دخلت في مرحلة جديدة من تطورها، وهي الضواحية Suburbanization [٦، ص١٠].

وبالطبع فقد رافق الحضرية الجديدة تغيّر في علاقات الناس بعضها ببعض، فذكر (تونيس) Tonnies في عام ١٨٩٣م أن الأسرة بعدما كانت الرابط الرئيسي أصبحت الرابط الثانوي وذلك لأن العلاقات أصبحت تعتمد على العقلانية ومدى ما يراه الفرد في مصلحة إنتاجيته، لا على التقاليد. وأكمل (درخايم) Durkheim أن المجتمع بعدما كان مقسمًا إلى أجزاء Segmental تعتمد على علاقة الدم والقرابة تحول إلى مجتمع منظم Organized ذابت فيه تلك الأجزاء على حسب وظائف المجتمع الجديد. وكتب (ورث) Wirth في عام ١٩٣٨م مقالة عن المتغيرات النفسية التي يمر بها الفرد في المدينة وملخصها كالآتي: إن الكثافة السكانية الشديدة في المدينة أنتجت كثافة اتصالات شديدة بين السكان وبالتالي ضغطًا نفسيًا يجعل الأفراد ينعزلون عن المجتمع من حولهم لتخفيف هذا الضغط وحصر اتصالاتهم في نطاق ضيق وغالبًا ما يكون هذا النطاق مجال العمل. وهذا النطاق الضيق من الاتصالات أنتج مجموعات اجتماعية مختلفة في المدينة على حسب نوعية ومستوى شبكة اتصالاتهم؛ إلا أن حال كثير من السكان آل إلى الانطواء بعد الانعزال ثم الغربة ثم الانحراف [٥، ص١٠-١٤].

وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٠م) طبقة المفكرين التقدميين Progressive intellectuals والذين يؤمنون بالإصلاح الاجتماعي عن طريق الحكومة. وكانوا يعتقدون في بعض القيم التي يجب أن تدعمها المدينة كالمودة Intimacy والاتصال وجهًا لوجه بين السكان وعلاقة الجوار. وفي منظورهم أن انقسام العمالة إلى طبقات وتطور الاتصالات والمواصلات الحديثة أوجدتا وحدات اجتماعية جديدة بناء على التركيب الصناعي الحضري الذي ألغى الإحساس بالانتماء لدى الناس. فالمدينة أصبحت معقدة جدًا لدرجة أنها

أضرت بهوية Identity السكان الشخصية. فالتعقيد في المدينة وعدم الإحساس بالانتماء والصراع الطبقي والانعزال المكاني، كل ذلك أدى إلى ضعف روح التفاهم الواحد. لذلك كان اقتراحهم للحل هو ضرورة زيادة التوافق النفسي والعرفي بين الناس. وبهذا التوجه كان نموذج «الحي الصغير» Small community هو ما يصبون إليه من ناحية تخطيطية، حيث يمكن للسكان في هذا الحي الاتصال وجها لوجه ثم بالتالي نمو القيم والهوية المشتركة. وفوق كل ذلك، اعتبر التقدميون ضرورة وجود حكومة صالحة تسعى إلى سحب السكان مرة أخرى إلى المجتمع دون ترك المجال لعوامل الثورة الصناعية المختلفة في التأثير عليهم، بحيث أن تدخل الحكومة لا يكون شديداً فيؤدي إلى الاشتراكية. ولم تقوَ فكرة تدخل الحكومة للإصلاح إلا في نهاية القرن التاسع عشر مع ظهور حركة التقدميين. أما في السابق فقد كانت الفكرة هي أن قانون العرض والطلب في السوق كفيل بأن يطور البيئة السكنية والعمرانية المناسبة. وكانت أحد الحلول الرئيسية للمدينة الغربية هي تحولها إلى ما يسمى بمدينة داخل حديقة City in a garden وبالتالي ظهر علم تنسيق المواقع Iandscape architecture [٥، ص١٧-٢٠].

وتحت هذه المظلة كان هناك ميل شديد إلى تفتيت المدينة إلى مدن ضواحية Suburban towns وذلك بتوفير الهواء الطلق والشعور بحياة الريف من خلال مساحات كبيرة بين المباني وإضفاء الناحية الجمالية مع عدم عرقلة النشاط الاقتصادي الذي كانت توفره المدينة الصناعية. واستعان هذا الاتجاه لتجميل المدينة بما يسمى بـ (المخطط الرئيسي لاستخدامات الأراضي Master plan for land use) والتوزيع الشامل للمناطق Com-prehensive zoning . وكان الهم الأول من تخطيط المدينة هو التخفيف من مساوىء المدينة الصناعية بإضفاء الصفة الجمالية. وهذه الحركة أو الاتجاه للمدينة الجميلة City beautiful movement هي التي طورت نظام تخطيط المدن في الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت هذه الجهود من التخطيط تنفذ باعتقاد أن الإنسان يمكنه التحكم في البيئة العمرانية بكفاءة لتحقيق أفضل النتائج الاجتماعية. وكان هذا هو الأساس الذي قام عليه تخصص التخطيط الحضري [٥، ص٢٢].

ديناميكية الرأسمالية

رأينا في هذا العرض السريع كيف بدأت المدينة الصناعية في المجتمع الغربي في النمو

ثم التدهور في ظل الثورة الصناعية، ثم كان لابد من تدخل الحكومة لتحسين وضعها الجمالي والصحي، حيث لم تكن هناك أي نظم أو قوانين لضبط نمو البيئة العمرانية سوى قانون العرض والطلب في السوق، فلا يمنع المستثمر من إنشاء مصنعه في منطقة سكنية، أو بناء مبنى عالٍ في منطقة لا تتحمل زيادة سكانية، أو تسكين عمال المصنع في مبان مزرية إذا كان في ذلك توفير مالي جيد. ومنذ ذلك الحين تغيرت عملية التحكم في البيئة العمرانية بطريقة عكسية بحيث إن القرارات أصبحت تأتي من لجنة أو هيئة ممثلة للحكومة بدلاً من السكان، فتطورت القوانين والنظم لحماية البيئة العمرانية والطبقة العاملة فكان الناتج هو نظم التحكم في البيئة العمرانية وبعض القوانين مثل مقاييس Standards التصميم لمشاريع الإسكان. وهذا التدخل للحكومة عن طريق لجانها التخطيطية للتحكم في البيئة العمرانية ولد ديناميكية جديدة انتشرت وتوغلت بقوة في المجتمع الغربي لدرجة أنه بنهاية عام ١٩١٠م عندما كانت الأفكار الأساسية للتخطيط الحضري قد قوبلت بالرضا بشكل واسع، انتشرت اللجان بكثرة في أمريكا الشمالية حيث أنشئت بين أعوام ١٩٢٠م إلى ١٩٣٠م ٧٠٠ لجنة والتي تشرف بدورها على عمل المكاتب الاستشارية الخاصة [٥، ص٢٢]. وبالرغم من أن هذه اللجان تأسست لإصلاح ما أفسدته الثورة الصناعية الرأسمالية، إلا أنها لم تفلت من الديناميكية الرأسمالية. فالسبب الرئيسي لهذا الانتشار الواسع، كما سنرى، كان نتيجة لدعم الديناميكية الاقتصادية الرأسمالية له، والتي كانت قد توغلت في المجتمع الأمريكي منذ بدء الثورة الصناعية.

إن الذي ساعد على نمو الرأسمالية وانتشارها، كما ذكرنا سلفًا، هو تحسن كفاءة الإنتاج الصناعي بسبب الاكتشافات والاختراعات العلمية ومن ثم كثرة الأموال في الاستهلاك والاستثمار. هذا النشاط الاقتصادي الذي جاء بعد الإقطاعية أخذ قالبًا جديدًا للإقطاعية [٧، ص٢١] بحيث يجعل الطبقة المالكة للثروات والأموال هي التي تتحكم في الإنتاجية. أما الطبقة العاملة التي لا تملك إلا وقتها في السوق، فيخضع ثمن وقتها تحت قانون العرض والطلب، وبما أن المستثمر الرأسمالي يريد أكبر قدر ممكن من الربح مع أقل إنفاق ممكن كي لا ينتهي إلى الإفلاس بسبب التنافس الشديد في السوق، فإن وقت العمالة دائمًا يكون بخس الثمن، وإذن فلابد من وجود طبقة عاطلة عن العمل كفائض بديل إذا ارتفعت أجور العمالة. وبذلك تكون الطبقة العاملة في أسفل السلم ولا تستطيع الصعود.

ولشدة التنافس في السوق ووجود الحرية الاقتصادية أصبح هناك هدفان أساسيان للمستثمر الرأسمالي. الهدف الأول هو إنتاج أكبر قدر ممكن من البضائع بأقل سعر ممكن، والهدف الثاني هو إقناع المستهلكين بشرائها. فالهدف الأول تحقق بأمور منها استغلال وظلم الطبقة العاملة كما ذكرنا سابقًا، أما الهدف الثاني فقد تحقق بوسيلتين، الأولى هي «تصميم» البضاعة بأشكال مختلفة وإن كانت ذات وظيفة واحدة لإغراء المستهلك، والثانية هي إقناع المستهلك بواسطة «الدعاية والإعلان» بأهمية هذه البضاعة في حياته.

فلنذكر مثالاً واحدًا لتوضيح هاتين الوسيلتين. ذكر فورتي Adrian Forty أنه قبل بداية الثورة الصناعية كانت آلات الخياطة تُصنع حرفيًا، فكانت باهظة السعر لا يمكن تسويقها إلا لمصانع الملبوسات. وفي عام ١٨٥٠م صنعت أول آلة خياطة آليًا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت ذات كفاءة عالية وتكلفة منخفضة إذا ما قورنت بسابقتها. وخسرت شركة (سنجر) Singer التي كانت تصنع آلات الخياطة لبيعها لمصانع الملبوسات فقط، بخلاف شركة (ويلر وولسن) Wheeler & Wilson التي كان تصنيعها لغزو الأسواق العامة إضافة إلى أسواق المصانع إذ أن آلاتها كانت أخف وزنًا وأقل حجمًا وأبسط في الاستخدام، فكانت مبيعات شركة (ويلر وولسن) جيدة، ثم حذت حذوها شركات تصنيع آلات الخياطة تجنبًا للإفلاس. وبذلك أصبحت القضية هي كيفية إقناع المستهلكين أن آلات الخياطة يمكن اعتبارها من المقتنيات المنزلية كالأثاث. فبدأت الشركات بالتصنيع لتتناسب قيمة الآلات مع ما يستطيع المستهلك دفعه، ولكن لم تكن الأسعار مناسبة بعد. وكانت أول آلة خياطة عائلية من شركة (سنجر) تبلغ قيمتها ١٢٥ دولارًا. بعد ذلك طورت أحد الشركات ميكانيكية بسيطة لآلة الخياطة مما جعل تصنيعها سهلاً وبالتالي انخفض سعر الآلة إلى ٥٠ دولارًا، ثم زادت حدة البيع نقدًا وبالتقسيط. كانت الدعاية وحدها غير كافية لاستجلاب المستهلكين، فأخذت الشركات بتصنيع آلات بتصاميم مختلفة تتناسب مع موضة الأثاث، فكانت الآلات مزخرفة كأي تحف منزلية في ذلك الوقت، مرة على شكل قطة ومرة على شكل تمثالين صغيرين يحملان قضيبًا وغير ذلك من التصاميم. وكانت أحد العوائق في إقناع المستهلك هو الانطباع الموجود عن آلات الخياطة في أن مكانها المصانع

ويعمل عليها النساء الوضيعات في المجتمع، فقامت حملة دعائية قوية لمسح ذلك الانطباع، وذلك مثلاً بتصوير آلة الخياطة بين نساء جميلات يلبسن آخر موضة وهن في أحد زوايا البيت. واستمرت هذه الشركات في استخدام التصميم والدعاية كوسيلتين لإقناع المستهلك حتى دخلت الآلات كثيراً من البيوت وتكونت طبقة خادمات في المجتمع تخيط الملابس في البيوت. ومما لاشك فيه أن هذه العملية زادت من اهتمام النساء بمظهرهن وظهور الموضات المختلفة. وليست آلة الخياطة الوحيدة التي مرت في مثل هذه الديناميكية الرأسمالية، فالأسواق مليئة بمختلف المنتجات المختلفة التصاميم المغرية للشراء، والمجلات مليئة بالدعايات الخيالية الجذابة في كثير من الأحيان [٨، ص٩٤].

البيئة العمرانية وعملية التصميم

وماذا عن البيئة العمرانية، هل سلمت من التسويق؟ إن الفعالية Efficiency (أن يكون المنتج ذا فعالية وكفاءة بأقل تكلفة ممكنة)، التي رافقت نمو الثورة الصناعية، جعلت المتخصصين يتخذون «الوظيفية» Functionalism (كيفية تحقيق الغاية مباشرة) مبدأ في عملية التصميم [٢، ص١٦]، وعُبر عن هذه الوظيفية بتعابير تخصصية مختلفة مثل Form follows function (أي أن شكل المبنى يتبع الوظائف التي فيه)، وأول من استخدم هذا التعبير مدرسة شيكاغو Chicago school في نهاية القرن التاسع عشر. ومن التعابير أيضًا Machine House (وإن البيت مركب من أجزاء لكل منها وظيفة محددة تربطها علاقة وظيفية مع باقي الأجزاء تمامًا كتركيبة الآلة)، وظهر هذا التعبير بعد انتشار التقنية الحديثة في المجتمع الغربي بشكل كبير في بداية القرن العشرين، واشتهر باستخدامه المعماري (لو كاربوزييه) Le Corbusier .

فلو حلّلنا البيوت التي يصممها المتخصصون نجد مبدأ الوظيفية مميزًا فيها، وكأنها أجهزة مركبة من قطع لكل منها وظيفة محددة ثابتة. فكل غرفة في البيت لا تناسب إلا الوظيفة التي صممت لها، شكلاً وحجمًا وموقعًا في الغالب، والأسواق وفرت الأثاث الذي يخدم هذه الوظائف المحددة في هذه الغرف، فهي مليئة بمختلف الأطقم الكاملة لغرف النوم وأخرى للأكل، وأطقمًا للجلوس ماهو مناسب للضيوف وما هو مناسب للعائلة إلى غير ذلك. أما الممرات التي توصل بين هذه الغرف فلا عجب أن تكون بعرض متر واحد أو يزيد

قليلاً لأنها صممت للانتقال من حجرة إلى أخرى فقط، وذلك هو دور خرطوم الماء في الآلة.

ومن قوة الرأسمالية أنها استطاعت أن تُسخر عملية التصميم للربح حتى وإن أدى ذلك إلى تناقض عملية التصميم مع نفسها. فالتصميم بدأ أساسًا ليكون فعالاً Efficient أي: منتجًا فعالاً بأقل انفاق ممكن، وفي الوقت نفسه نرى عملية التصميم تقترح أمورًا تناقض الفعالية والإنفاق القليل، مثل الغلو في التزيين عند تصميم الواجهات حتى لو أدى ذلك إلى استخدام البلكونات والنوافذ الكبيرة واللتين تخالفان الحاجة الفعلية لمجتمع كالمجتمع الخليجي مثلاً، أو الأشكال الهندسية المكلفة البناء، أو الارتدادات التي تجعل كمية البناء أكثر (حيث الفاصل بين بيتين جدارين لا جدار واحد)، أو استخدام المواد الغالية الثمن والنظم الميكانيكية التي تحتاج إلى صيانة مكلفة. فلماذا هذا التناقض؟ في الواقع هو ليس تناقض للرأسمالية، فالغاية الرأسمالية هي إرضاء الزبون (أي الربح) بفعالية أولاً، وفعالية المُنتج في الرأسمالية هي إحدى وسائل إرضاء الزبون، ففعالية المنتج كوسيلة قد تهمل إذا كانت إحدى الوسائل لإرضاء الزبون الغلو في التزيين. فالبضاعة وطريقة تصميمها هي الوسيلة لسحب أكبر قدر ممكن من الربح. فالغاية تبرر الوسيلة، فالغاية أموال المستهلك.

كما أن مبدأ الوظيفية الناتج من الفعالية يجعل التصميم قاصرًا على خدمة الوظيفة التي يقترحها المصمم لا على «السلوك» الواقعي للفرد في نفس المكان عند استخدامه، فهناك فرق بين الوظيفة والسلوك. فعلى سبيل المثال، لو طلبنا من عشرة أشخاص أن يقرأ كل منهم جريدة على أن يكونوا في بيئة واحدة، أي جميعهم في منطقة واحدة لنجرد تأثير البيئة المادية على طريقة قراءتهم، لوجدنا أنهم يختلفون، فمنهم السريع في القراءة ومنهم البطيء، ومنهم المتكيء ومنهم المستلقي، ومنهم المفترش للجريدة ومنهم المطبق لها، إلى غير ذلك. «فالوظيفة المجردة» التي يقوم بها الشخص هي القراءة، ولكنها ليست السلوك، بل جزء منه، فالسلوك أعم وأشمل. وهناك نظريات مختلفة لتحليل السلوك الإنساني، منها نظرية الاكتساب الاجتماعي Social leaming theory، والنظرية الإدراكية Cognitive theory، ونظرية التحليل النفسي Psychoanalytic theory، وكلها تركز على مسببات مختلفة للسلوك، وأهم هذه المسببات هي القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية والإرادة والنفسية (ولنسميها الخلفيات) [٩، ص٢٨]. كما أن هناك مجالات أكثر تخصصًا تركز على تأثير البيئة المادية في

السلوك مثل علم الدراسة البيئية النفسية Environmental psychology ، ودراسات البيئة والسلوك Environment and behavior.

إن الكـارثـة في عملية التصميم هي أن المتخصصين فيها لا يستطيعون التصميم للسلوك بل فقط للوظيفة المجردة من باقي العوامل، وذلك لأن الوظيفة يمكن قياسها، أما الخلفيات فلا يمكن إلا وصفها. ففي مثال القراءة مثلاً، يمكن القول بأن الشخص ينهي قراءة خمس كلمات في الثانية، فنحن نستطيع أن نقيس كمية قراءته، ولكن لا نستطيع أن نقيس ما يحتاجه من مساحة إلا إذا جردنا القراءة من الخلفيات.

ولنفرض جدلاً، أن المتخصصين نجحوا في قياس الوظيفة المجردة دون الخلفيات (لأن العملية يغلب فيها قياس طول أبعاد الإنسان مع وضع وظيفته في عين الاعتبار)، ومن ثم التصميم لها، كل وظيفة على حدة، كتصميم طاولة دراسية للدراسة على نمط دراسي معـين يحدده المصمم على حسب مفهـومه للدراسة، وكرسي للجلوس عليه بهيئة معينة، ودولاب لوضع الكتب بتنظيم معين، فإن مهمة تصميم العلاقات التي تربط هذه الوظائف بعضها ببعض مستحيلة، وذلك لاستحالة قياس الخلفيات والتي ليست لها أبعاد طولية أو عرضية أو وسيلة قياس يعتمـد عليهـا. وحتى الآن لا توجد طريقة أو أداة معروفة لدى المتخصصين تُحول هذه الخلفيات إلى مقاسات رقمية أو أشكال كما هو معتقد على مستوى الوظائف.

ولقـداعتـبرت افتراضي الذي شرحته سابقًا [بأن المتخصصين نجحوا في التصميم للوظائف] افتراضًا جدليًا، وذلك لاستحالة وجود الوظيفة في الحياة مجردة، فلا وظيفة بدون فاعل، والفاعل في كل لحظاته متأثر بخلفياته، والتي تؤثر في الوظيفة فتنقلها إلى مستوى أعلى وهو مستوى السلوك، أي أن الفاعل ليس آلة. وبمعنى آخر، لا يمكن الافتراض بأن هناك وظيفـة واحدة متشابهة عند جميع الناس. فلنأخذ وظيفة الأكل مثلاً: تأخذ وظيفة الأكل اختلافًا تقليديًا، ففي بعض المجتمعات يأكل الناس على الأرض وفي أخرى يأكلون على الطاولات، كما تختلف اختلافًا قيميًا، فبعض المجتمعات تعتبر الأكل أساسًا في التعبير عن الكرم وفي أخرى شر لابد منه، كما تختلف اختلافًا عاداتيًا، فبعض الأسر تعودت الأكل في غرف المعيشة وأخرى تعودت الأكل في المطبخ، كما تختلف اختلافًا نفسيًا، فمن الناس من يستمتع أثناء الأكل بتمهل وكأنه في نزهة ومنهم من يسرع وكأنه في عمل.

وبالرغم من استحالة قياس الخلفيات والتي هي جزء مهم في عملية التصميم، كانت هناك محاولات لقياس كفاءة التصميم. فقد قام (آرشر) L.B.Archer في عام ١٩٦٩م بوضع نموذج حسابي لتقويم أي تصميم من ١ إلى ١٠٠، ولكنها باءت بالفشل [١٠، ص٥٢]. فعملية التصميم تحتاج إلى قياس «كميات وكيفيات»، فالكميات ككمية الضوء أو درجة الحرارة المطلوبة في المكان المراد تصميمه يمكن قياسها، أما الكيفيات كالقيم والعادات والتقاليد والنفسيات لا توجد لها مقاييس يعتمد عليها في عملية التصميم. بل حتى قياس الكميات يؤدي في كثير من الأحيان إلى أخطاء كبيرة في التصميم، فعلى سبيل المثال، عُلم أن نسبة ٢٪ من ضوء النهار الطبيعي على أدنى حد يجب أن يتوافر في الفصل الدراسي، وبالتالي أصدر قانون صممت على أساسه المدارس على أن تكون فصولها بواجهات زجاجية كبيرة (لم يذكر الكاتب أين حدث هذا). فالذي حصل أن درجة حرارة الفصول أصبحت عالية في الصيف مما أدى إلى عدم الالتزام بهذا القانون، فالقضية هنا أن هناك أمرين أو أكثر في عملية التصميم لا يمكن التوفيق بينهما حسابيًّا لأنهما مختلفان في المعايير ولا يتقابلان في نقطة وسط كحل حسابي [١٠، ص٥٣]. هذا هو الحال بالنسبة للكميات التي يمكن قياسها، فكيف بمن يريد أن يوفق في التصميم بين الكيفيات مثل خصوصية البيوت والتي هي عامل يعزل كل بيت عن الآخر وعلاقة الجوار والتي هي عامل يقارب بين هذه البيوت؟

فإذا كانت عملية التصميم تتطلب قياس أمور بعضها كمي والآخر كيفي، ولا تقع جميعها في معيار واحد بحيث يمكن للمصمم ترتيبها أو وضعها حسابيًا في أولويات، فما هو الحل؟ كيف يمكن للمصمم أن يقرر أيهما أولى، على سبيل المثال، جعل غرفة المعيشة هي الموصل للمطبخ أم يكون هناك ممر يوصل بين المطبخ وباقي أجزاء البيت، وتكون غرفة المعيشة مستقلة؟ هل يمكن للمصمم أن يقدم دراسة توضح للزبون أي الأولويات أفضل؟ قد يكون الرأي أن الزبون هو الذي يقرر، ولكن القضية هي أن الزبون أيضًا لا يمكنه الوصول إلى القرار السليم إلا إذا مر «بتجربة» تتقابل فيها المعايير في «نفسه» فيقرر ما يحتاج.

فتجربة الفرد هي مركز تقابل جميع المعايير ثم القرار ثم تقويم ذلك القرار ثم معاودة القرار حتى الوصول للحل المناسب. إن التجربة هي التي يمر فيها الفرد على جميع الأمور الكمية (كقدرته المادية وعدد الغرف التي يحتاجها ومساحة الأرض ونحوه) والكيفية (كدرجة

الخصوصية اللازمة واجتماعية الفرد واحتكاك أطفاله مع الجيران ومدى ارتباط الأسرة مع بعضها البعض وعلاقات الأماكن بعضها ببعض، ونحوه) وفي الوقت نفسه يقرر على حسب ما يراه مناسبًا له ولأسرته آخذًا في الاعتبار بقصد أو بغير قصد جميع هذه الأمور. وعلى سبيل المثال، لقد انتقلت من بيت إلى آخر في آخر ثماني سنوات سبع مرات، وكنت في كل مرة أرتب الأثاث على حسب ما أراه مناسبًا في كل غرفة، مراعيًا بذلك سهولة الحركة والخصوصية وغير ذلك من معايير تصميمية، كأن أضع الكراسي على شكل حرف U ثم على شكل حرف L ثم متفرقة، إلا أن ذلك التوزيع يتغير باستمرار حتى يصل إلى أنسب حل والذي في كثير من الأحيان لا يخطر على البال، فبواسطة التجربة توصلت إلى الحل لا بواسطة التحليل ثم الاقتراح. وليس هذا الوضع مقتصرًا على توزيع الأثاث في الغرفة ذاتها، ولكن معظم الغرف تختلف استخداماتها من فترة لأخرى وينتقل الأثاث من غرفة إلى أخرى حتى التوصل لأنسب حل، حتى وصل الحال الآن بأن يستأثر أبنائي بالغرفة التي أرادها المصمم كغرفة النوم الرئيسية. ولاشك أن الكثير يمر بمثل هذه التجارب.

والتجربة كانت من الأسس التي اعتمد عليها في نمو البيئة الإسلامية التقليدية، فقد نشأت الأعراف في البيئة التقليدية عن طريق تراكم التجارب كخبرات. وهذه العملية تبدأ من ظهور حاجة لحل مشكلة ما غالبًا ما تكون مشتركة لمجموعة من السكان، فتكون هناك حلول مختلفة مبتكرة في بادىء الأمر على حسب اجتهاداتهم، ومع مرور الزمن وتكرار التجارب ثم ظهور نتائجها وتقويمها ثم تعديل الحلول تتراكم الخبرات حتى تظهر أفضل الحلول كأعراف بين السكان [١١، ص٣٦٧]. فالتجربة قد أثبتت جدارتها في البيئة التقليدية كوسيلة لأنسب قرار ممكن.

وفي الواقع أني لم أكن أحتاج إلى ما تعلمته كمتخصص في التصميم لأصل إلى أفضل حل، ولكن من خلال التجربة. أذكر مرة عندما كنت أتحدث مع أحد سكان هجرة الفودة (وهي منطقة لم تصلها قرارات المصممين) بالقرب من مدينة بقيق بالمملكة العربية السعودية، أخبرني أن اتجاه المجالس في بيوتهم دائمًا يكون شرقيًا غربيًا لتخفيف حرارتها، فسألته إذا كان يعلم لماذا هذا الاتجاه هو الاتجاه البارد؟ فلم يعرف السبب، ولكنه يعرف عن طريق التجربة لا الدراسة أن هذا الاتجاه هو الاتجاه الصحيح. فالتجربة أدق وأسلم من قياسات المصمم ودراساته لأن التجربة تضع جميع الأمور الكمية والكيفية في معيار

واحد، وهو الفرد نفسه، أما قياسات المصمم ودراساته فتجعله متحيزًا للتركيز فيما يمكن قياسه وإغفال مالا يمكن قياسه بالرغم من أهميته، وبالتالي يضع أولويات لا توجد بالقالب نفسه في الحياة الواقعية.

ولنأخذ على سبيل المثال اقتراح (بوجي) A. Boje في الحصول على تصميم فعّال، عندما حسب أن الموظف يحتاج إلى سبع ثوان لفتح باب المكتب ثم إغلاقه، فإذا كان في المبنى ١٠٠ موظف و ٢٥ مكتبًا وكان كل موظف ينتقل من مكتب إلى آخر ١١ مرة في اليوم، فسيوفر الموظف في حالة المبنى ذي المساحات المفتوحة أي التي ليس لها أبواب أو جدران Open plan ٣٢ استخدامًا للباب أي ٢٢٤ ثانية في اليوم. وإضافة إلى هذه الطريقة يقترح (بوجي) طرقًا أخرى مماثلة في توفير الوقت ثم يخرج بنتيجة أن التصميم الفعال يوفر لكل موظف ٢٠٠٠ دقيقة في الشهر!! [١٠، ص٥٩] فلا عجب أن مثل هذه الدراسات لا تراعي العوامل الاجتماعية والنفسية في التصميم لأن هذه العوامل من الاستحالة قياسها.

إذن، فحتى لو أراد المتخصص أن يراعي في تصميمه الخلفيات فلن يستطيع لاستحالة قياسها، وبذلك يكون التصميم وظيفيًا مجردًا من هذه الخلفيات وذا أولويات غير واقعية، ولكن ماهو الناتج من هذا التصميم؟ إن الناتج من هذا التصميم هو ما سماه (ليفبر) Lefebvre المكان المجرد Abstract space . وسوف نناقش ما وصل إليه (ليفبر) لاحقًا.

المكان المجرد والقيم التقليدية المحلية

لقد نوقشت قضية ارتباط نفسية الإنسان بالمكان في علم النفس الاجتماعي Social psychology ، وعلم الدراسة البيئية النفسية Environmental psychology ، ودراسات السلوك والبيئة Environment & behavior . وفي التالي عرض سريع لهذا الارتباط. إن الإنسان فطر على التعلم، فهو دائمًا متحفز Motivated لاستكشاف ما حوله، وبالتالي دائم الاستقبال لمعلومات جديدة يجب عليه أن يفسرها ويفهمها، ويجب عليه أن يعطيها معاني تجعله قادراً على أن يستوعبها ثم يتكيف معها. فالعقل عند استقباله لمعلومات معينة يركبها تركيبًا مفهومًا Makes sense بالنسبة له ثم يثبتها على ذلك التركيب والذي يكون قابلاً للتطور والتغير، فإذا استقبل معلومة جديدة لها علاقة بأحد التراكيب أضاف المعلومة إلى التركيبة

فتصبح الأخيرة بالتالي أكثر تعقيدًا، ومع مرور الزمن وكثرة المعلومات تنمو هذه التراكيب وتتطور. فعلى سبيل المثال، المولود في أول أيامه يملك شيئًا بسيطًا من هذه التراكيب ثم سرعان ما يبدأ باكتشاف ما حوله حتى يكبر قليلاً ثم يكون تصورًا، أي يركب تركيبة بسيطة عن شكل البيت الخارجي مثلاً، ومع مرور الزمن وكثرة رؤيته للبيوت تصبح تركيبة البيت في ذهنه أكثر دقة وتعقيدًا. فلو طلبنا من طفل عمره ثلاث سنوات أن يرسم لنا بيتًا مع أطفال حوله، لرسم رسمة ليس فيها بُعد أو عمق Perspective ، فهذه مرحلة متقدمة عليه لا يصلها إلا بعد سن معينة وتجارب كثيرة، لذلك نجد أن الأطفال يفهمون أفلام الرسوم المتحركة وينسجمون معها لأنها بسيطة التركيب. وقدرة فهم الإنسان للبيئة من حوله تسمى الإدراك Perception ، ودرجة الإدراك تختلف من شخص لآخر على حسب كمية ونوعية المعلومات التي استقبلها وعلى حسب قدرة عقله في التركيب. والمكان ليس إلا جزءًا من هذا التفاعل، فهناك القيم والعادات والتقاليد والنفسيات كلها تشترك في هذا التفاعل بغية الاستقرار لتركيبة معينة مفهومة للعقل مقبولة لدى النفس، وتحدث عمليات تفاعل كثيرة ومتواصلة دون توقف، لذلك فالإنسان في نمو أو انهيار أو تذبذب نفسي متواصل، والمكان له أثر دائم في هذه التفاعلات.

ولتوضيح قدرة المكان في حمل التأثير على مدى طويل وعميق في نفسية الإنسان، لا للتدليل، نذكر قصة واقعية لامرأة كان المكان سببًا في نقل التأثير التركيبي السيء في تصورها إلى باقي فترات حياتها حتى كان سببًا رئيسيًا في إدمانها للمسكرات. تقول إنها كانت في الرابعة عندما أخذها والدها إلى ملجأ الأيتام لأن أمها أصيبت بوعكة صحية ولا تستطيع رعايتها. وتصف الملجأ بأن أرضيته كانت من الخشب الصلب البارد، وغرفه كانت كبيرة جدًا، وأنها كانت تشعر بأنها صغيرة جدًا في هذه الغرف، وأحيانًا كثيرة كانت ترمي نفسها في الفراش وتبكي حتى النوم. وكان والدها يزورها ولكن بعد غيبات طويلة فتتعلق به وتبكي حتى لا يتركها في الملجأ. ومكثت في الملجأ حتى بلغت الخامسة عشرة، ثم خرجت ومعها الشعور بعدم الانتماء لكل مكان يشبه مكان الملجأ، ويسمى هذا الشعور Uprootedness ولنسمه الاقتلاعية، فطيلة حياتها كلما دخلت في مكان يشبه الملجأ تشعر بعدم الانتماء للمكان وبالتالي الشعور بضآلة النفس. فلم تنجح في دراستها لأن الكلية كانت تشبه الملجأ، بل إن بعض الغرف في بيتها كانت كذلك، ثم تدريجيًا نما عندها

عدم الثقة بالنفس وأصبحت مدمنة للمسكرات كحل للهروب مما هي فيه [١٢، ص٧٥].

بعدما عرفنا صلة المكان عمومًا بالنفس، فلننظر إلى صفات المكان الرأسمالي. قلنا سلفًا أن المكان الرأسمالي مجرد من الخلفيات الاجتماعية ولا يخدم إلا الوظيفة التي صمم لها. فمثلاً غرفة النوم الرئيسية لها مقاسات ومواقع خاصة وكمية إضاءة تختلف عن غرفة نوم الأطفال وتختلف عن المكتب وكذلك عن المجلس وعن المطبخ. ولذلك كانت مواقع وأحجام وأشكال غرف البيوت المعاصرة متغايرة، وهذا يجعل عملية انتقال السلوك من غرفة إلى أخرى عملية صعبة. فمثلاً عندما استأثر أبنائي بغرفة النوم الرئيسية، أصبحت أنا بعيدًا نوعًا ما عن دورة المياه، وأصبحت غرفة نومي أصغر من المراد. فعملية مخالفة قرارات المصمم ليست سهلة وأدفع ثمنها شئت أم أبيت، دريت أم لم أدر، وإلا على تنفيذ ما اقترحه المصمم المتخصص في ما يراه مناسبًا في كيفية ممارسة حياتي!!.

وإذا قمنا بمقارنة بين البيئة المعاصرة والبيئة التقليدية من ناحية استيعابية الأماكن في كل منهما، لوجدنا أن المكان في البيئة التقليدية أكبر قدرة في استيعابية عدة سلوكيات مختلفة من المكان في البيئة المعاصرة. فعن طريق التجارب ثم الأعراف نمت صفات للأماكن بحيث تتناسب مع سلوك الساكن بقدر كبير [١١، ص٤٣٥]. فبدلاً من أن يكون لكل غرفة حجم لا يتحمل إلا وظيفة واحدة وبالتالي يكون البيت مكونًا من غرف مختلفة الصفات لكل منها دور ثابت (وذلك هو حال الآلة)، تكون صفات الغرفة لخدمة أكبر قدر ممكن من السلوكيات، ولذلك كانت غرف البيوت لكل منطقة في البيئة القديمة متساوية الأحجام ومتشابهة الصفات في كثير من الأحيان.

وليس قصور المكان الرأسمالي الوظيفي المجرد هو في عدم استيعابيته للسلوك، بل هو أخطر، لأنه يسحب السلوك إلى مستوى الوظيفة المجردة، لأنه كما ذكرنا سابقًا لابد للإنسان أن يتكيف حتى يصل إلى الاستقرار النفسي، وفي هذه الحالة لا يصل إلا بالاستجابة نفسيًا للمكان المجرد فيتجرد من بعض قيمه وعاداته وتقاليده. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، فهناك ديناميكية معاكسة تجعل الإنسان بفطرته يركب من القيم الجديدة في نفسه دون توقف، فكما أنه يتفاعل مع الأمكنة كمعلومات فهو أيضًا يتفاعل مع باقي المعلومات كتوجيه الوالدين في الصغر والاحتكاك بالأصدقاء واتباع تعاليم الدين والتقاليد إلى غير ذلك، ثم تنمو القيم بالتالي في نفسه [١٣]. إذن فالقيم والمكان المجرد في صراع مستمر بين تجريد أو

احتفاظ أو بناء، وآثار انتصار المكان المجرد في هذا الصراع واضحة في المجتمعات الحضرية ألا وهي اضمحلال القيم التقليدية وخصوصًا في المدن الكبيرة. كما أن هناك آثاراً أخرى عندما تنتصر بعض القيم نراها في البيئة العمرانية المعاصرة، حيث نلاحظ التعديلات التي يقوم بها السكان في المباني وحتى في الشوارع. ولولا أن السكان يغيرون في البيئة العمرانية لماتت قيمهم، أو مات المكان بهجره، ولنا في تجربة البدو عند سكنهم في مناطق الحضر أكبر دليل، فمنهم من تغير قيميًا أو يغير في البيئة العمرانية ومنهم من عاد إلى باديته.

إذن فالمكان المجرد يقوم بتجريد الفرد باستمرار من القيم والعادات والتقاليد وما يتناسب مع النفسيات من خلال عملية سحب السلوك إلى مستوى الوظيفة المجردة، فالبيئة العمرانية لا تختلف كثيراً عن آلة الخياطة إلا اختلافًا بسيطًا ولكنه خطير، وذلك أن آلة الخياطة أسهمت في نمو قيمة رأسمالية واحدة تقريبًا، أما البيئة العمرانية المعاصرة فلأننا نعيش فيها، فهي في عمل مستمر دائم لتجريدنا من قيمنا كما ذكرنا، ومن هنا ندرك خطورة البيئة العمرانية الرأسمالية، وليس ذلك فحسب بل إن (ليفبر) يجزم بأن الحضرية الغربية تستخدم البيئة العمرانية لتنمي وتدعم القيم الرأسمالية، وهذا ما سنناقشه الآن.

الحضرية الغربية والقيم الرأسمالية

رأينا فيما سبق كيف نتج المكان المجرد من الديناميكية الرأسمالية، وفي الوقت نفسه فإن المكان المجرد يدعمها، فهو وجد لخدمتها. فكيف ذلك؟ يعتبر (ليفبر) البيئة العمرانية المعاصرة «قوة إنتاجية رأسمالية» تعمل في المجتمع كأي قوة منتجة أخرى، فهي ليست مجرد نتاج رأسمالي، بل هي كالمال الذي يحصل عليه التاجر على سبيل المثال بعد البيع، ثم يستثمره كقوة لإنتاج آخر. فهي أماكن أثرت الحضرية الغربية على طريقة تركيباتها وتصميماتها وعلاقاتها مع بعضها البعض وبالتالي على المجتمع تأثيراً رأسماليًا، بل أن الرأسمالية تعيد إنتاج نفسها عن طريق الحضرية والتي هي في الغالب نظم للبيئة العمرانية [١٤، ص١٢٣]. فالمجتمع الرأسمالي بعدما بدأ زراعيًا ثم أصبح يعتمد على الصناعة في استمراريته، أصبح الآن يحافظ على استمراريته عن طريق الحضرية Urbanism ، فكما كانت هناك ثورة صناعية، فتوجد الآن ثورة حضرية Urban revolution . ولذلك فالمجتمع الرأسمالي لم يصل إلى نهايته وذلك لوجود حضريته الطاغية في كل مكان واستمرارية

ديناميكيتها في المجتمعات الرأسمالية [١٥، ص١٥٧]. أي بمعنى آخر أن المكان أصبح يستغل كوسيلة لديناميكية الرأسمالية، كما هو حال الماء والهواء والضوء وبقية المصادر الطبيعية، حيث أصبحت وسائل ليست لراحة الإنسان بل للكسب المالي، وبذلك انضم المكان إلى قائمة النوادر التي بدأ يفتقدها الإنسان في العصر الحاضر [١٥، ص١٥٨]. فعلى سبيل المثال نجد كثيرًا من الناس لا يستطيعون امتلاك أراض بالرغم من كونها مصدرًا لا محدودًا كالهواء والماء ومتوافرة في كل مكان، فعندما خضعت الأراضي لقوانين الرأسمالية، والتي جاءت بعد الإقطاعية، أصبحت سلعة للربح فندرت مع توافرها. وإذا علمت أن كثيرًا من الناس لا يملكون أراضي ولا يستطيعون، ثم رأيت في المدينة وحولها كثيرًا من الأراضي غير المستغلة إلا في زيادة الأموال، فلا تتعجب. وإذا رأيت مبنى سكنيًا متعدد الأدوار يسكن في كل دور أربع عوائل أو أكثر، يلعب أطفالهم في ممراتها الضيقة، ويدفع آباؤهم الإيجارات المنهكة في فترة شحت فيها المساكن وارتفعت إيجاراتها، ثم رأيت في مقابل ذلك المبنى أرضًا واسعة لا يوجد فيها زرع ولا بنيان إلا التراب لأن صاحبها لم يحصل على السعر المطلوب بعد، فإذا رأيت مثل ذلك فلا تتعجب، فهناك تضاد مستمر في عملية إنتاج المكان بين الضرورة الرأسمالية (لاستغلاله لأكبر قدر ممكن من الربح) وبين الحاجة الاجتماعية الفعلية له.

فالأماكن وتنظيماتها الطاغية في كل مكان عبارة عن أحد المنتوجات الرأسمالية. فالرأسمالية قامت عن طريق وسائلها بتسخير الحضرية الجديدة لخدمتها بحيث إن القيم التي توجد في هذه الحضرية يجب أن تتماشى مع ديناميكية الرأسمالية وتستمر على ذلك، والمكان المجرد هو أحد نظم الحضرية الحديثة، فهو يحمل القيم الرأسمالية والتي تدعم الرأسمالية وتدعمها الرأسمالية. فعلى سبيل المثال، المتعة: لأن الهدف الرأسمالي كما أسلفنا هو زيادة الربح، فهي بواسطة الحضرية تشجع دائمًا المتعة Leisure وتسوق لها وتجعل من البحار والأنهار والجبال والغابات والصحارى ومراكز المدن أماكن متعة عن طريق الدعاية القوية والإعلان، وبالتالي تضيف في قيم الناس حب المتعة ومن ثم صرف الأموال في سبيلها، ولنا فيما نراه من حرص الناس على السفر كل صيف للبلاد الغربية أكبر دليل، فكثير هم الذين يعملون طوال العام لصرف ما جمعوه في صيف واحد، لدرجة أن قلة عدد الناس في الشوارع والأماكن العامة صيفًا أصبح أمرًا ملحوظًا. وبذلك أصبحت الأماكن مصدرًا ماليًا كبيرًا

لاستمرارية الرأسمالية [١٥، ص١٥٩]. فتوافر أماكن السياحة والترفيه وإغراء المستهلك بالصور الجميلة والتسهيلات في صرف الأموال كبطاقات الصرف Credit cards تشجع المستهلك على حب الترفيه، ومن ثم فإن حب الترفيه يزيد من أماكن الترفيه، وهلم جرا، فتزداد العملية حتى تصبح ظاهرة وجود نسبة كبيرة من المجتمعات تعيش في رخاء ورفاهية ووجود نسبة كبيرة من مجتمعات أخرى تموت جوعًا ظاهرة غير مستنكرة عند الكثير، حيث تغلبت قيم الرفاهية على قيم رحمة الإنسان بالإنسان.

وأحد القيم الرأسمالية المروجة عن طريق الحضرية لزيادة الربح هي الفردية Indi-vidualism أي إحساس الفرد أنه لا يكون نموذجيًا مثاليًا في المجتمع إلا إذا ابتعد عن الناس [١٦]. ومن البدهي أن تفرغ الفرد لمجال عمله يزداد متى ضعفت علاقاته الاجتماعية. بل إن إنتاجية الفرد الغربي في مجال عمله أصبحت هي المصدر الرئيسي لفخره واعتزازه. ولقد سخرت الرأسمالية جميع إمكاناتها الحضرية وليس فقط البيئة العمرانية لنشوء هذه القيمة، فعلى سبيل المثال، ذكر (بيلا) أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي الجديد أنتج الفردية الجديدة في المجتمع الأمريكي، وهذه الفردية تشجع الفرد على الانعزال ليكون منتجًا في المجتمع، تمامًا كشخصية راعي البقر البطل في الأفلام الأمريكية، فهو دائمًا فريد المزاج ذو شخصية مميزة جذابة ولا يظهر إلا عندما يحتاجه مجتمعه، كما أنه ذكي ذو إحساس مرهف بالعدالة ويكره الظلم، كما أنه سريع في إطلاق النار لا يخطىء الهدف، ثم يعود ويختفي بعد إتمام مهمته. هذه الشخصية الخيالية ظهرت في أفلام أمريكية كثيرة تعكس نظرة المجتمع الأمريكي للمثالية [١٦، ص١٤٥]. فالفردية تطورت مع توافق لمتطلبات الديناميكية الحضرية للمجتمع الرأسمالي. فتعلق الفرد بمجال عمله وانعزاله عن المجتمع إلا في أمور بسيطة تجعله يستحسن الارتدادات بين البيوت واقتراب العام Public إلى الخاص Private، أي الشوارع العريضة التي تخترق الأحياء السكنية أمام البيوت. فكان مناسبًا أن يخرج الساكن من بيته (خاص جدًا) إلى الشارع (عام جدًا) دون أي تسلسل في الانتقال Hirarchy ويستقل سيارته إلى عمله، لأن تعلقه بعمله وأموره الخاصة لم تبق لاهتمامه بجاره وقتًا. حتى لو وُجدت أماكن تشجع لقاء الجيران بعضهم ببعض، فعلاقات الجوار تبقى ضعيفة، بل من الواجب أن تبقى ضعيفة لكي تأخذ الرأسمالية مسارها في المجتمع. فالمكاتب الهندسية تربح أكثر إذا وجدت ارتدادات بين البيوت، فبدلاً من أن

يبدع المكتب الهندسي في تزيين واجهة واحدة، فليبدع في أربع واجهات بأن يكون البيت كتحفة يتفنن المكتب الهندسي في إبرازها على غيرها في أجل صورة ليبيعها للمستهلك، فوجود أربع واجهات للتحفة الفنية أكمل من وجود واجهة واحدة، أما حجة وجود الارتدادات للتهوية والإضاءة فهي حجة واهية لأن النوافذ لا تفتح في معظم أوقات السنة في مثل الأجواء الصحراوية [الغالبة في كثير من البلاد العربية وخصوصًا في شبه الجزيرة] الحارة صيفًا والباردة شتاءً، كما أن كثيرًا من النوافذ تغطي بالستائر السميكة القماش للتخفيف من الوهج الشديد. فلا عجب أن يتفنن المصمم في تزين المبنى حتى لو أدى ذلك إلى الاستعانة بأمور تخالف الاحتياجات الحقيقية لمثل هذه الأجواء كوضع النوافذ الكثيرة لتجميل واجهة المبنى، وحتى لو أدى ذلك إلى تبني فلسفات تبرر التصاميم المختلفة، كتشبيه المبنى بكائن حي (التشبيه العضوي)، أو تشبيهه بتنظيمة مشاعرية (التشبيه الرومانسي)، أو تشبيهه بمجموعة كلمات اجتمعت لتكوين جملة مفهومة (التشبيه اللغوي)، إلى غير ذلك من الاتجهات والنظريات. ولا يعني هذا أن هناك جهات معينة في المجتمع تخطط لنشر مثل هذه القيم لكي تُوضع الارتدادات بين البيوت فتتفكك العلاقات مثلاً، ولكن عملية التسويق وتفنن المُنتج في تشكيل بضاعته وإغراء المستهلك لشرائها بأن يصبح مميزًا عند السكن فيها بواسطة اللوحات والمناظير الجميلة، أو الدعاية في حالة البضاعة في السوق، هذه العملية تنمي عند المستهلك حب الفردية والتي بالتالي تدعم الديناميكية الرأسمالية.

فعلى حسب الفردية، لكي يتميز الساكن عن غيره يجب أن يكون الساكن ذا ذوق معين يجعله يتخير من الأثاث المتنوع المعروض في السوق بما يتناسب مع شخصيته ويجعله مختلفًا عن غيره [٨، ص١١٨]. فغرفة النوم مثلاً تحتاج طقمًا كاملاً، وكذلك طقمًا للجلوس في غرفة الضيوف وطقمًا للجلوس في غرفة المعيشة، بل وطقمًا للحمام، إلى غير ذلك. وليت الأمر يقتصر على طقم واحد لكل غرف النوم، بل هناك أطقم لا حصر لها، ولها أسماء كـ (دلال، سوسن، عادل، إلخ)، وإعطاء صفة الأنوثة والذكورة للمنتجات أحد الوسائل لإنتاج كمية كبيرة من البضائع وتصريفها [٨، ص٦٢]. فعلى المصمم المتخصص أن يضع في عين اعتباره الأثاث الذي يتكامل مع المكان المخصص له، وكلما كان التفصيل في توزيع الأثاث ونوعيته محددًا، اعتبر التصميم جيدًا، وبذلك يكون المبنى المُستهلك الجيد في

السوق، وهذا ما أصبح المستهلك يريده فعلاً، فالفردية الرأسمالية هيأت المستهلك الساكن لأن يطلب من المصمم مثل هذه الخدمة.

وحتى لو وجدت بيئة تقليدية مجهزة للسكن فلن تجدي، بل قد تؤدي إلى تناقض مع قيم السكان الجديدة. ولذلك نجد أن سكان المناطق التقليدية يخرجون منها إلى مناطق ذات تخطيط حديث حتى وإن كانت بيوتهم التقليدية في حالة جيدة ومزودة بالخدمات الحديثة كالكهرباء والهاتف والماء، كما هو حال قرية روضة سدير التقليدية (شمال مدينة الرياض بالسعودية) في يوم من الأيام. فعندما كنت في رحلة دراسية لروضة سدير تحدثت مع أحد المسنين الذين عاصروا القديم والجديد في المنطقة نفسها، وكنت أحاول معرفة ما إذا كان له تقدير للبيئة العمرانية القديمة ويجب الرجوع إليها، فوجدت أن كل همه أن تخطط المنطقة القديمة تخطيطًا حديثًا وتنزع ملكية بيته ويعوض على ذلك!! فإذا كان هذا هو حال قيم من عاصر القديم وترعرع فيه، فكيف بمن لم يعرف إلا الحضرية الغربية!! فالقيم الرأسمالية كالفردية (وما يتبعها من تفكك علاقة الجوار) انتشرت أولاً عن طريق ديناميكية الحضرية الرأسمالية المستوردة في جميع مجالات الحياة والتي من ضمنها البيئة العمرانية الرأسمالية المستوردة.

بعض الحلـــول

إن محاولة الحفاظ على القيم بواسطة عملية التصميم كتصميم مساحات بين الجيران لتشجيعهم على الاحتكاك ثم تطوير العلاقات بينهم مثلاً، أمر غير مجد لأسباب، أولاً لأن عملية التصميم مهما راعت القيم فهي بطبيعتها تقوم بخلق مكان مجرد يجرد الفرد والمجتمع من القيم والعادات والتقاليد، وفاقد الشيء لا يعطيه. وثانيًا لأن ديناميكية الحضرية الغربية تمكنت من المجتمع كله، فتغيير جزء منه لا يغير الباقي بل قد يؤدي إلى مضاعفات لا حصر لها، وذلك لأن الحضرية الرأسمالية عندما تتوغل في المجتمع وتنمو تجعل جميع النظم والمؤسسات والقيم الاجتماعية وحدة واحدة تكمل بعضها بعضًا. فإذا كانت الديناميكية الرأسمالية بهذا الترابط، فما الحل؟

إن رأي (ليفبر) في التخلص من سيطرة الرأسمالية على جميع نواحي الحياة هو التحرر أولاً من سيطرة المكان الرأسمالي وتركيباته وعلاقاته مع بعضه البعض، وذلك بضرورة تحرك

الطبقة العاملة في المجتمع لتوجيه إنتاجها إلى الحاجة الاجتماعية الفعلية عن طريق الإدارة الشخصية Self-management مع مراعاة أن المكان له أثره ودوره في الصراع مع الرأسمالية [١٥، ص١٦١]. ويبدو أن (ليفبر) لم يستطرد في الحل كما استطرد في شرح المشكلة وتحليلها.

إن حجة (ليفبر) في أن الرأسمالية تنتقل عن طريق المكان وتثبيت نفسها من خلاله قوية وواضحة وملموسة. ولكننا لا نتفق معه في حله لأمرين، الأول هو أنه أعطى أهمية كبيرة جدًا لقضية المكان بحيث إنه الأساس في التخلص من سيطرة الرأسمالية. صحيح أن المكان هو نتاج الرأسمالية ونحن نعيش فيه، ولكنه مازال جزءًا من مجموع منتجات الرأسمالية. فتحديد ليفبر لإمكانية التخلص من طغيان الرأسمالية فقط عن طريق التحرر من أماكنها وعلاقاتها وتصميماتها يجعله يشبه (ماركس) عندما قصر التغيير الشامل إلى التغيير الاقتصادي فقط، وهذا منظور ضيق، ولقد رأينا من قبل كيف أن المكان له دور كما لغيره من العوامل في السلوك الإنساني كالتربية والقيم والعادات الاجتماعية. ولقد رأينا كيف أن القيم لا تنتقل فقط عن طريق المكان كالمتعة، بل إن كثيرًا من منتجات التقنية في الأسواق تحمل معها قيمًا غربية كالفردية.

والأمر الثاني، أنه من الواضح أن (ليفبر) ينظر إلى الحل بأنه تنازع قوى بين الطبقة العاملة المقهورة وبين الطبقة البرجوازية والتي من مصلحتها أن تستمر الرأسمالية، أي أن منظوره يعتبر أن التغيير لا يتم إلا عن طريق الصراع الطبقي في المجتمع. وبمعنى آخر أن الطبقة العاملة يجب أن تنظم نفسها كقوة لتواجه الطبقة البرجوازية ثم التحرر منها عن طريق ديناميكية التشريع الجديد الذي سماه الإدارة الشخصية Self-management ، أي لابد أن تستأثر الطبقة العاملة على سُلطة التشريع ثم تنفذ التشريع بنفسها، وهذا كان منظور (ماركس) نفسه للحل في إرجاع سُلطة التشريع إلى الطبقة العاملة وكذلك سُلطة تنفيذ هذا التشريع. وإذا نظرنا إلى الشيوعية والتي كان أساسها الماركسية لوجدناها بعد ثورة العمال قد انتهت إلى أن طبقة واحدة في المجتمع استأثرت بكل السُلطات التشريعية والتنفيذية، وعاشت الطبقة العاملة كطبقة عبيد، أسوأ من حال الطبقة العاملة في النظام الرأسمالي، فانتقل حق التشريع وحق التنفيذ من الطبقة العاملة إلى فئة معينة، وبالتالي فهم بحاجة إلى ثورة أخرى، ثم أخرى، والقضية لن تنتهي.

لقد كانت فكرة (ماركس) أساسًا بألا تكون هناك حكومة تشرع وتنفذ، بل الشعب يشرع وينفذ بنفسه كما يقترح (ليفبر) الآن. والافتراض بأن الشعب قادر على القيام بالسُلطة التنفيذية بنفسه افتراض خاطىء مخالف للفطرة البشرية، وهذا ما أثبتته التجربة الماركسية الشيوعية، وذلك عندما اضطر (لينين) إلى تكوين حكومة تنفيذية توحد الشعب الشيوعي والذي قاتل تحت رايات مختلفة في أحد الحروب فعمت الفوضى بينه. إذن فلابد من وجود قوة لجهة ما تضمن تنفيذ التشريع. وبمجرد أن توجد هناك سُلطة تنفيذية لتضمن التشريع البشري، تقوم هذه السُلطة بسرقة حق التشريع لنفسها واستعباد غيرها، وليست الشيوعية هي المثال الوحيد في ذلك، بل إن الرأسمالية سبقتها عندما أصبحت أغنى طبقة في الولايات المتحدة الأمريكية وهم بنسبة ١٪ من عامة الشعب ويمتلكون من ٢٥-٣٥٪ من جميع الممتلكات و ٥٥-٦٥٪ من الثروة المعدودة هي الفئة الحاكمة [١٧].

ولذلك فلابد أن تكون الجهة المشرعة في نفس مستوى قوة الجهة المنفذة لكي لا يُسرق منها حق التشريع، وهذا مستحيل كما رأينا من تجربة الماركسية، إلا إذا كانت الجهتان تعملان تحت سيطرة جهة ثالثة أقوى من الجميع. إن هذه الجهة الثالثة هي العبودية لله، وبذلك تكون الجهة المنفذة هي القيادة البشرية التي تتعبد الله بتنفيذ شرعه فالله فطر الناس على عبادته، ولا تستقيم حياتهم إلا بشرعه. والجهة المشرعة هم علماء الأمة الذين يعتمدون على القرآن والسنة في توضيح أحكام الشريعة الإسلامية للمجتمع. ولو نظرنا إلى البيئة الإسلامية التقليدية نجد أنها مبنية على أسس من الشريعة الإسلامية والتي أعطت الحرية للسكان في التنسيق بينهم حتى تظهر الأعراف [١١، ص٣٦٧]، أي أن السكان أنفسهم هم مصدر الأعراف والتي كانت تقوم بمقام القوانين في الوقت الحالي. وفي هذه الحالة لا تتدخل قوة التنفيذ إلا إذا كان هناك ما يخالف الشرع.

الخاتمـــة

تعرض هذا البحث لنقد واقع البيئة العمرانية المعاصرة ومساهمتها في دعم طغيان الرأسمالية أكثر من طرحه الحل لهذا الواقع. وبنقد دور عملية التصميم الرأسمالية في حل مشكلة توافق البيئة العمرانية مع الحاجات الاجتماعية والحضارية لمجتمعاتنا، ونقد الحل الذي طرحه (ليفبر) للتخلص من طغيان الرأسمالية، يبقى هذا البحث وموضوعه مرتعًا خصبًا للنقد والبحث.

المراجـــع

[١] Blake, P. *Form Follows Flasco.* Boston/Toronto: Little, Brown and Company, 1977.

[٢] Brolin, B. *The Failure of Modern Architecture.* New York: Van Nostrand Reinhold Company, 1976.

[٣] Fisher, J. *et al. Environmental Psychology.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1984.

[٤] Sommer, R. *Social Design.* New Jersey: Prentice-Hall, Inc. 1983.

[٥] Berry, B. *The Human Consequences of Urbanisation.* New York: Martin's Press, 1973.

[٦] Solomon, A. *The Prospective City.* N.Y.: The MIT Press, 1980.

[٧] Edwards, R. *et al. The Capitalist System.* New Jersey: Prentice-Hall, Inc. 1986.

[٨] Forty, A. *Objects of Desire.* New York: Pantheon Books, 1986.

[٩] Craig, G. *Human Development.* New Jersey: Prentice-Hall, 1986.

[١٠] Lawson, B. *How Designers Think.* London: Mackays of Chatham Ltd. 1986.

[١١] أكبر، ج. *عمارة الأرض في الإسلام*. جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٢هـ.

[١٢] Buttimer, A. *The Human Experience of Space and Place.* New York: Marthin's Press, 1980.

[١٣] خليفة، ع. *إرتقاء القيم*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤١٢هـ.

[١٤] Gottdiener, N. *The Social Production of Urban Space.* The University of Texas Press, 1985.

[١٥] Saunders, P. *Social Theory and the Urban Question.* New York: Holmes & Meier Publishers, Inc., 1986.

[١٦] Bellah, R. *et al. Habits of the Heart.* New York: Harper & Row, Publishers, 1985.

[١٧] Domhoff, G. *Who Rules America Now.* New York: Simon & Schuster, Inc., 1983.

Capitalism, Without our Cognition

Sameer A. Akbar
College of Architecture & Planning,
King Faisal University, Dammam, Saudi Arabia

(Received on 29/4/1413; accepted for publication on 12/4/1415)

Abstract. Most studies that are concerned with the suitability of the built environment with the dwellers' societal needs of muslim societies consider redesigning the built environment according to the local needs as the sole solution to provide the suitable built environment. However, the real problem is not only in the built environment itself, but also in the design process which has been driven from capitalist societies. Due to the impact of capitalism, the design process has been considering functionalism as the main criteria to develop an efficient built environment. As a result, the design process as well as other western societal forces became as tools for capitalism and its values to invade societies. Thus, the design process inevitably develops capitalist values even if the intention of the muslim designers is not to do so.

The emphasis of this article is on the impact of capitalism on the design process. The article discusses how the spaces that contradict local values and customs are created through the design process. Also, some suggested solutions to free societies from the capitalist domination are discussed.